المحاضرة الاولى

مدخل إلى دراسة الفكر الجزائري

تمهيد: مما لا شك فيه أن الفكر مفهوم عام يتخلل مختلف أوجه نشاط الإنسان، فالإنسان كائن مفكر بامتياز. وهو لا يتوقف عن التفكير إلا بالموت، كما يقول ماسينيون. وعليه فإن التفكير بالمعنى العام، أي اليومي والعملي الذي يتطلبه التكيف مع الواقع، ليس نشاطا نخبويا، تقوم به فئة متخصصة من الناس في ميدان من الميادين. وإنما الفكر الذي تقوم به فئة معينة من أفراد المجتمع، أعني الفكر الذي يتحلى بصفة التدوين والكتابة، أي فكر أولئك الذين يطلق عليهم اسم الكتاب أو المثقفون أو المفكرون. وعندما نتكلم عن الجزائر لا بد من التساؤل حوال مشروعية الحديث عن "الفكر الجزائري": فهل يوجد حقا فكر جزائري؟ وهل يمكن تمييز هذا الفكر عن الفكر العربي أو الفكر الإسلامي؟ وهل يمكن إدخال الفكر اللاتيني المسيحي الذي كتبه أبناء أرض الجزائر، مثل أبوليوس، والقديس أوغسطين ويوبا الثاني، ضمن التراث الفكري الجزائري؟

في الحقيقة مثلما لا يوجد مجتمع ليس له ثقافة، كذلك لا يوجد مجتمع ليس له فكر، بغض النظر عما يمكن قوله بشأن مكانة هذا الفكر و طبيعته و خصائصه، وفي دراسة تحمل عنوان "مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي" لأبي القاسم سعدالله يفضل هذا الأخير استعمال "المدارس الثقافية" بدل "المدارس الفكرية" قائلا: "نستعمل كلمة (مدرسة) بمعنى اتجاه وليس بمعنى تيار فلسفي أو نظري، ومن أجل ذلك استعملنا (المدارس الثقافية)بدل) المدارس الفكرية).." وقد فضّل استخدام مفهوم الثقافة على مفهوم الفكر، على أساس أن الأول أوسع والفكر ليس غير مكون من مكوناته. ولكن رغم هذا يمكن أن نتكلم عن فكر جزائري، وهو يتميز عن الفكر العربي والإسلامي.

ـ مميزات الفكر الجزائري:

أولا: لعل أبرز ما ميز الفكر الجزائري هو تجربة الاستعمار الذي سيمارس تأثيره على طبيعة الأسئلة التي سيطرحها الفكر الجزائري، و لعل أبرزها مسألة الهوية والمسألة اللغوية التي تتفرع عنها، شأنها في ذلك شأن إشكالية الحداثة والتراث، الأنا والآخر، وهي إشكاليات وإن طغت عموما على الفكر العربي الحديث والمعاصر، إلا أنها كانت مرتبطة بوضع خاص في الجزائر وتلقت إجابات نوعية، بسبب طبيعة الاستعمار، وهو استعمار استيطاني

طويل كانت له آثاره الثقافية، لا سيما على الصعيد اللغوي، وما تبع ذلك من تصورات سياسية وإيديولوجية في مختلف تجلياتها في الفترة الاستعمارية وبعد الاستقلال.

ثانيا: إذا كان الفكر الإنساني يتأثر أولا بمحيطه المباشر ثم بمحيطه الخارجي، على أن درجة التأثير والتأثر قد تختلف من مجتمع إلى آخر، فإن الحديث عن الفكر الجزائري لا يخرج عن هذه القاعدة العامة. وهذا يعني أننا لسنا أمام فكر جزائري خالص، خال من المؤثرات الآتية من الخارج، سواء من المحيط العربي أو من المحيط الإنساني العام. وأول حدث كان له التأثير البالغ على ظهور الفكر الجزائري الحديث قد تمثل في صدمة الاستعمار، فصدمة الاحتلال والاستعمار لم يقتصر تأثيرها على الحياة السياسية والاجتماعية، بل تعداها إلى الحياة الثقافية. يقول أبو القاسم سعد الله بهذا الصدد: "حين نجحت الحملة الفرنسية على الجزائر كان لها أثرا كبيرا على الحياة السياسية والثقافية (...) لا يشبهه إلا ذلك الأثر الذي تركته الحملة الفرنسية على مصر بالنسبة للمشرق العربي". ولعل أبرز أثر ثقافي خلفته الحملة الفرنسية على الجزائر هو فقدان المثقفين الجزائريين بمرور الوقت لوحدتهم اللغوية التي كانت تتمثل قبل دخول الاستعمار في اللغة العربية، بحيث سينقسمون بعد الاحتلال إلى قسمين، أحدهم يستعمل اللغة الفرنسية والآخر اللغة العربية. وسيكون لهذا الانقسام، كما سنرى، أثرا دائما على الصعيد الثقافي والفكري والإيديولوجي والسياسي سيستمر إلى ما بعد الاستقلال وإلى اليوم.

ثالثا: من مميزات الفكر الجزائري، بالقياس إلى الفكر العربي على وجه العموم، هو ازدواجيته اللغوية، وقد خلفت هذه الازدواجية أثرها الكبير على الفكر الجزائري ، ولا تحيل مسألة هوية الفكر الجزائري فقط إلى اعتبارات ذات صبغة لغوية، بل أيضا إلى اعتبارات دينية. فمثلا نجد أن المؤرخ المعروف أبو القاسم سعد الله في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي" وفي "موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين" الصادرة عن دار الحضارة لا وجود للفكر اللاتيني المسيحي الذي كتبه أبناء أرض الجزائر، مثل أبوليوس، والقديس أوغسطين ويوبا الثاني، ولا يدرج ضمن التراث الفكري الجزائري. وهذا ما أدى في الحقيقة إلى دور الاعتبارات الإيديولوجية في تحديد هوية الفكر في الجزائر. علما أن الإسلام في حد ذاته يتسم بالتفتح ويعترف بحقوق الديانات الأخرى. والحقيقة أنه كان الأجدر إبراز إسهام الجزائر في التراث الإنساني والعالمي بدل افقاره بمثل هذا الإقصاء الذي ليس له مبرر موضوعي.

رابعا: من مميزات الفكر الجزائري أنه فكر عملي، فهو في الحقيقة لم يقدم مفكرين يتجاوز تفكيرهم حدود المحلية أو حدود العروبة والإسلام، ولم ينتج خطابا موجها للإنسانية جمعاء، على خلاف المفكرين الغربيين مثلا، فالفكر الجزائري اشتغل في الموضوعات ذات الأهمية الوطنية، وبالتالي تناول قضايا وإشكالات محدودة زمانيا وجغرافيا. ولعل هذا ما يسمح لنا بوصف الفكر الجزائري بأنه فكر عملي، أعني فكرا يهدف إلى تقديم الحلول والإسهامات في إطار المشاكل والمشاغل التي تهم مجتمعه بالدرجة الأولى. ففي هذا الإطار يندرج عبد الحميد بن باديس، مصطفى الأشرف، مولود قاسم، عبد المجيد مزيان، عبد الله شريط، عمار طالبي، عبدالرزاق قسوم وغيرهم. وفي الحقيقة ليس في هذا ما يعاب عليه أو ما يدعو إلى الدهشة، بل يبدو هذا التوجه للفكر طبيعيا في بلد يسعى إلى بناء نفسه، وبالتالي تشغله قضاياه النوعية الخاصة، الأمر الذي يجعله يتخذ الطابع العملي والوظيفي والوطني.